

الفارس المملوكى

تألف الجيش المملوكى بمصر من أربع فئات وهى : فئة المماليك السلطانية وهم طوائف كثيرة تضم ممالك السلاطين السابقين ، أى القرانصة (١) ، ومماليك السلاطين الذين فى دست الحكم وهم المشتريات . ويعرفون فى المراجع باسم المشتريات أو الحلبان أو الأجلاب (٢) ، ومماليك الأمراء الذين ينتقلون إلى الخدمة السلطانية بسبب وفاة أو عزل أو مصادرة تلحق بسادتهم : ويطلق على هذه الطائفة الأميرية اسم السيفية (٣) .

والفئة الثانية هى ممالك الأمراء وأرباب الدولة والوظائف : ويعرفون باسم أجناد الأمراء ، والفئة الثالثة هم أجناد الحلقة الذين يجيئون من عناصر مختلفة من أصناف المماليك الذين تقدمت الإشارة إليهم فضلا عن بعض المتعممين (٤) . أما الفئة الرابعة فهى فى الواقع داخلة فى نطاق فئة الحلقة ، ولكنها ظلت مستقلة لاقتصارها على أبناء السلاطين الأمراء والمماليك ، ونشأ هؤلاء الأبناء وتربوا فى دار الإسلام وحمل معظمهم أسماء عربية . بل التحق بهذه الفئة الضيقة عدد كبير من الفقهاء ، ويعتبر أولا الناس أرقى أفراد فئة الحلقة (٥) .

(١) انظر Ayalon, David : Studies on the Structure of the Mamluk Army p. 217 (Reprint from the BSOAS 1954 XVI).

(٢) الظاهري : زبدة الفكرة ص ١١٦ .

(٣) العربي : نظام الفروسية زمن سلاطين المماليك (غير مطبوع) ص ٢١ .

Ayalon : op. cit. XVI, I pp. 220-222.

(٤) الظاهري : زبدة كشف المماليك ص ١١٦ .

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٨٦ - ٣٨٧ .

القلعشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٦ . Ayalon : op cit. II p. 449

(٥) Ayalon : Op. Cit. II p. 4501451

ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٢ ص ١٣٥ .

النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٥٣ ، ١٥٩ ، ١٦٠ .

منتخبات حوادث الدهور ١٧٤ - ١٧٥ .

ابن إياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٩٣ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٣٧ .

وجاءت عناصر الجيش المملوكي من أجناس مختلفة ، وأولها جنس الترك ، وهو اسم جنس للمماليك الذين جاءوا من بلاد قبيجاق حيث جرى امتزاج التتار والمغول بالترك في هذه البلاد (١) . ونشطت حركة جلب الرقيق من العناصر التي خضعت للتتار على يد تجار أجنبية ، وأقبل أبناء الملوك من الأيوبيين على اقتناء أعداد كبيرة من ذلك الرقيق لإنشاء الجيوش الكافية لحروبهم الداخلية ، فأكثر الصالح أيوب من شراء المماليك بعد أن تبين له فساد الخوارزمية وعدم الاعتماد عليهم (٢) . ولذا جاء معظم السلاطين في العصر المملوكي الأول من بلاد القبيجاق * ومن الطبيعي أن يعتمد كل منهم على مثل ما نشأوا فيه من جيوش مملوكية معظمها من جنسهم . وكان لاستمرار الحرب بين ملوك التتار في الشرق أثر كبير في كثرة السبي من النساء والصبيان الذين جيء بهم إلى مختلف الأسواق في مصر والشام ولأسيا زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٣) . ووجد الخنوية وغيرهم من التجار في السلطان مغنا ، فأمعنوا في الاستيلاء على : أولا التتار وجلبهم إلى ثغر كفا بالقدم ، وضاق طقطاخان ملك القبيجاق بهذه التجارة فأرسل جيشاً إلى كفا وضرب أوكار تجار الرقيق بها ، غير أن ذلك لم يمنع تجارة الرقيق أو يقلل من نشاطها (٤) . أما الجراكسة وهم الذين يلون الترك في الأهمية في تكوين الجيش المملوكي فكانت منازلهم ببلاد قبيجاق الخنوية بين بحر قزوين والبحر الأسود ، وتعرضت مواطنهم لإغارات الدولة الخوارزمية ، فأخذت كثيراً من رجالهم أسرى وسبت نساءهم وأولادهم ، وجلبتهم التجارة الخوارزمية رقيقاً إلى الأقطار الإسلامية واشترى المنصور قلاوون عدداً كبيراً منهم وأنزلهم في القلعة ، إمعاناً في إبعاد العناصر الشمالية من القبيجاق التتاريين الذين تألفت منهم الظاهرية ممالك بيبرس وأولاده من الجيش المملوكي (٥) . وازداد شأن الجراكسة فيما جرى

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٧٤ ج ٦ : ٤٥٨ .

المقريزي : الخطط ج ١ ص ٩٥ .

العيني : عقد الجمان ج ٥٢ ص ٤٢٢ .

(٢) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٠ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ .

(٣) بيبرس الداوادر : زبدة الفكرة ص ٣٨٤ .

(٤) بيبرس الداوادر : زبدة الفكرة ص ٤٦٠ .

(٥) المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٩١ .

من الحوادث والفتن التي وقعت أواخر عصر بيت قلاون ، وما زالوا حتى أعادوا برقوقاً إلى السلطنة فأحسوا بقوتهم ؛ وحاول برقوق كبح جماحهم غير أنه لم يستطع إلى ذلك سبيلاً ، فتكونت بذلك دولة الجراكسة ، وأقبل كثير منهم على الهجرة إلى مصر ، واستغلوا رابطة الجنس في سبيل الحصول على امتيازات كثيرة . ودخل الجيش كذلك عناصر أخرى من الخوارزمية والأكراد والعرب والتركماني والمصريين .

على أن المقصود بهذا البحث هو دراسة ما وضعه سلاطين المماليك من نظم وقواعد لتنشئة الفارس المملوكي من فئة المشتريات من المماليك السلطانية الذين يعتبرون أعظم الأجناد شأنًا وأرفعهم قدرًا وأشدّهم إلى السلطان قرباً وأوفرهم إقطاعاً ومنهم توفر الإمرة رتبة بعد رتبة (١) .

ويعتبر التاجر الذي جلب المملوك إلى مصر أول حائز له وأول أستاذ له . واشتهر بعض التجار أحياناً باسم تاجر الخاص ، وأصبح الواحد منهم مكلفاً بجلب المماليك للسلطان ، ولذا عهد بهذه الوظيفة أحياناً إلى أمير من أمراء المماليك (٢) . وإذا وصل تاجر المماليك إلى القاهرة لى أنواع الحفاوة من السلطان (ولا سيما أيام السلطان الناصر محمد بن قلاون) ، فضلاً عن مساحته من المكوس والمقررات السلطانية (٣) . ويشير المقریزی إلى أن السلطان الناصر محمد بن قلاون كان أكثر السلاطين سخاءً في شراء المماليك ، وبلغ ما دفعه ثمناً لمملوك واحد مائة ألف درهم أحياناً مما جعل الأب يحد سعادته في بيع ابنه إلى تاجر يحلبه إلى مصر ، واقتدى الأمراء بالسلطان في ذلك (٤) . وأدى ذلك إلى زيادة أثمان المماليك عند شراء التجار لهم حتى بلغ ثمن الواحد منهم عشرين ألف وثلثين ألف وأربعين ألف درهم (٥) ، غير أنه يبدو أن الناصر لم يدفع أثماناً بهذه الضخامة إلا

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٥ .

(٢) السخاوي : الضوء اللامع ج ١٠ ص ٢٨٧ .

ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٢٩٦ ، ب .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٨ - ٤٠ ، ج ٤ ص ١٣٨ - ١٣٩ .

(٤) المقریزی : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٥٢٥ .

الخط ج ٣ ص ٣٤٨ .

(٥) المقریزی : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ، ص ٥٢٥ .

مرتين وذلك حين اشترى صرغتمش بخمسة وثلاثين ألف درهم فضلا عن تشریف أستاذه ومسامحته في عدة مقررات (١) ، وحين دفع مائة ألف درهم في شراء ملكتمر الحجازي (٢) لما اشتهرا به من جمال الحلقة وطول القامة وحداثة السن (٣) .

وجرى العرف أن يشتري السلطان الممالك الجدد من أموال الدولة (بيت المال) ، وهو الذي يتولى عتقهم ، فإذا حدث أن توفي سلطان من السلاطين ولديه من الممالك لم يعتق ، اشتراهم السلطان الجديد مرة أخرى ، على أن يذهب جزء من ثمن الشراء لأسرة السلطان المتوفى (٤) . ويتعلق بهذا الموضوع ما ورد من نصوص عما جرى حين عزل السلطان الناصر محمد بن قلاوون نفسه عن السلطنة سنة ٧٠٩ . إذ بعث السلطان المظفر بيبرس إلى الناصر بالكرك يطلب إليه إرسال الممالك الذين عنده لأنه اشتراهم من بيت المال (٥) ، فأثار بيبرس بذلك مسألة فقهية وهي أن الناصر اشترى جميع ممالكه من بيت المال ، وليس له الحق من الناحية القانونية في الاحتفاظ بهم بسبب عزله عن السلطنة . ولما عاد الناصر إلى السلطنة سنة ٧٠٩ استدعى الفقهاء وأقام عندهم البيعة بأن جميع ممالك السلطان المظفر بيبرس وجميع ما وقفه من الضياع والأموال اشتراه من بيت المال ، فوافق القضاة على ذلك ، وتقرر تصفية تركة المظفر بيبرس ، واستوفى بيت المال ماله من حقوق عنده (٦) .

ويرسل السلطان مشترواته من الممالك إلى الطباق حيث ينزل كل منهم في

(١) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٥٣٦ .

(٢) العسقلاني : الدور الكامنة ج ٤ ص ٣٥٨ .

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٥٢ .

المقرئى : الخطط (بولاق) ج ٢ ص ٤٠٤ .

(٣) العسقلاني : الدور الكامنة ج ٢ ص ٢٠٦ .

(٤) ابن تغرى بردى : منتخبات من حوادث الدهور ص ٦٧٢ .

المبطل الصافي ج ١ ص ٢٧٧ ، ٤٠٤ ب .

المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٣٥٣ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٨ ، ص ٢٥٤ .

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٨ ، ص ٢٥٧ .

طبقة جنسه ليتلقى التعليم الديني والحربي . وقامت الطباق بساحة الإيوان بالقلعة لسكنى المشترعات من الممالك وتعليمهم ، وربما ظل المملوك مقيماً بها بعد عتقه ، واشتملت كل طبقة على عدة مساكن تتسع لألف مملوك (١) . ومن المعروف أن الظاهر بيبرس بنى بالقلعة طبقتين مطلتين على رحبة الجامع ، وأنشأ برج الزاوية المجاور لباب القلعة ، وشيد جواره طبقة للممالك (٢) ، وسار على سنته في إنشاء الطباق من جاء بعده من السلاطين ، غير أنه يبدو أن الناصر محمد بن قلاوون حرص على أن تكون الطباق في مكان واحد ، فأمر بهدم ما يقع بينها من المباني والقصور ثم جمع فيها فئات الممالك السلطانية جميعاً ، وجعلها الظاهري اثنتي عشرة طبقة (٣) على الرغم من أن المصادر المملوكية المعاصرة ذكرت من أسماء الأ طباق ما يزيد كثيراً عن هذا العدد ، مما يرجح أنها لم توجد كلها في وقت واحد . بل طراً عليها كثير من التغيير والتعديل ، وربما تغير بعضها إلى اسم آخر . وهذه الأ طباق التي تردد ذكرها في المصادر المملوكية هي : الرفرف ، والطازية والزممام ، والأشرفية ، والحوش ، والغور والمقدم ، والصندلية ، والحازندار ، والميدان ، والمستجدة ، والقاعة ، وقراجا ، والأربعين ، ومرجان الحازندار ، والحروب ، والطبقة البرانية . ويتبين من ذلك أن عدداً كبيراً من الأ طباق حمل أسماء طواشية أو أسماء وظائف تولوها أشخاص معينون على شئون هذه الأ طباق (٤) .

ويكاد المقرئ يرى ينفر عن سائر المؤرخين بشرح تربية الممالك في الطباق بالقلعة ، وخلاصته أن الرسم كان في أول عهد السلاطين الممالك ألا تجلب التجار سوى الممالك الصغار . فأول ما يبدأ به فيما اصطلح العرف على تسميته

(١) المقرئ : الخطط ج ٣ ، ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ .

القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ، ص ٣٧٥ ، ٣٧٦ .

ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٨٨ .

الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ٢٧٧ .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة (ق) ج ٧ ، ص ١٩٠ ، ١٩١ .

(٣) الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ٢٧ .

(٤) العريني : نظام الفروسية ص ٥٥ - ٥٧ .

يرسم الكتابة (١) : هو أن يحفظ المملوك أجزاء من القرآن الكريم ، ولسكل طائفة من الممالك فقيه يحضر إليها كل يوم ، ويأخذ في تعليمها القرآن والخط وآداب الشريعة والصلوات والأذكار . فاذا شب الواحد من الممالك ، علمه الفقيه شيئاً من الفقه وأقرأه فيه مقدمة . فاذا صار إلى سن البلوغ ، قام معلم بتعليمه أنواع الحرب : من رمى السهام ولعب الرمح والضرب بالسيف ونحو ذلك . وإذا ركب الممالك إلى لعب الرمح لا يجسر جندي ولا أمير أن يدنو منهم .

وينتقل المملوك بعد تمرينه وعتقه إلى الخدمة ، فيتدرج في أطوارها رتبة بعد رتبة حتى يصبح من الأمراء ، فيبلغ ذلك بعد أن تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه ، وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه ، واشتد ساعده في رماية النشاب . وجنح بعض الممالك إلى الدراسة الفقهية أو غيرها من الدراسات المدنية فصار منهم الفقيه والأديب والشاعر والحاسب .

وكيفما كان الأمر اعتنى السلاطين بتربية الممالك في هذه الأدوار الأولى من حياتهم : فجعلوا عليهم أزيمة من الخدم وأكابر من رؤساء النوب ، يشخصون عن حال الواحد منهم ، ويؤاخذونه أشد المؤاخذة ويناقشونه على حركاته وسكناته . فاذا علم أحد منهم أن مملوكاً من الممالك اقترف ذنباً أو أخل يرسم أو ترك أدباً من آداب الدين والدنيا ، قاباه على ذلك بعقوبة على قدر جرمه . وأجرى السلاطين لطباق الممالك الرواتب الكثيرة من اللحوم والأطعمة والحلوى والفواكه والكساوى ، وتكون كسوة المملوك عند نزوله بالطباق من الثياب القطي البعلبكي ، ومن الثياب الكتان الخام المتوسط ، فضلاً عن المعاليم من النقود . ثم رخص السلطان برقوق للممالك في سكنى القاهرة وفي الزوج ، فخللوا من الطباق إلى المدينة وتزوجوا من نساءها ، غير أنهم لم يلبثوا أن أخلدوا إلى البطالة والعافية ونسوا حياة الطباق وصرامتها ، ثم تلاشت الأحوال وانقطعت الرواتب من اللحوم وغيرها ، لتفضيل الممالك للراتب النقدي أيام السلطان فرج

(١) المقصود برسم الكتابة تعليم المملوك ، والسرف في ذلك أن أكثر المشتريات في هذا العصر الأول من الممالك الصغار ، ولذلك سمو الممالك الكتابية (انظر المقرئزي : الخطط - بلاق ج ٢ ص ٣١٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٥٣) .

ابن برقوق فصار غذاؤهم في الغالب الفول المصلوق عجزاً عن شراء اللحم (١) .

ثم تطور الحلب من الممالك فأصبح من الرجال من أرباب الحرف ومن ضاق به العيش في بلاده ، وهبط مستوى تعليم الممالك سواء في الدين أو الفنون الحربية ، ورأى السلطان فرج أن يترك الممالك الكبار وشأنهم ، فتغيرت الأحوال ، وصار الممالك السلطانية أرذل الناس وأدناهم ، فكان ذلك من عوامل خراب مصر والشام (٢) .

وقام على تعليم الفروسية للممالك معلمون اشتهروا بإجادة فنونها المختلفة من الطعن بالرمح والضرب بالسيف والرمي عن القوس ، وألف بعض هؤلاء المعلمين والأساتذة كتباً تناولت أصول الفروسية وآدابها ومراحل التعليم الحربي ، والطرق المختلفة لتلقي المتعلم أساليب الفروسية ، وممارسة الألعاب التي تساعد على الاتقان والإجادة مثل الرمي في القبق والقيجج ولعب البرجاس والصوالة وسوق المحمل ، فضلاً عن تعرف الأدوات الحربية .

ففي الرماية مثلاً يبدأ الأستاذ في تعليم الرمي لتلاميذه من الممالك باتخاذ قوسين لينتين ، يطرح إحداهما بين يدي المتعلم والأخرى بين يديه ، فيبدأ أولاً بتعليمه كيف يقبض ، وكيف يمد بالأصابع الثلاثة حتى يصح قبضه ، ويتطلب ذلك وحده أياماً ومراتاً . ثم يعقد الأستاذ على الوتر من غير سهم ويشد أصابعه عليه حتى يستقيم عقده ، ويتبعه المتعلم في ذلك من غير رمي ، فيطلق الوتر فارغاً أياماً حتى يصح إطلاقه . ثم يأخذ الأستاذ في تعليم المملوك إطلاق السهم من القوس بغير ريش ، فلا يزال به حتى يعلمه التفويق والاحكام في الرمي وذلك بالتدرج رويداً رويداً من قوس التعليم اللينة إلى قوس أقل ليونة حتى يبلغ خمس أقواس متفاوتة في القوة ، وتكون الخامسة هي الصالحة للعمل في الميدان . فاذا تمكن المتعلم من الرمي عليها ، أخذ في شد القسي الشديدة ونزعها جهده طاقته ، وتمرس في استخدامها ليلاً ونهاراً . وعلى المتعلم أن يسمى عند الابتداء ويكبر عند الإطلاق ويصلي على رسول الله بعد ذلك ، وعلى الأستاذ

(١) المقرئى : الخطط ج ٣ ص ٣٤٧ - ٣٤٨ .

السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٥٢٤ - ٥٢٥ .

(٢) المقرئى : الخطط ج ٣ ص ٣٤٨ .

أن يشكر تلاميذه ويشجعهم ليزدادوا رغبة في التحصيل والتعليم ، فيروض تلاميذه ويؤلف بينهم ويحرضهم على العمل ، ولا يوبخهم إلا خلوة ليجتهدوا في الطلب ويكثرُوا في احترام الموضع الذي خص بالرمى ، ولا يرضى لأحد أن يتكلم فيه بفاحشة لأنه مسجد (١) .

فإذا صح رمى المتعلم ورمى الإماج أياً ما على غير علامة أو هدف ، — والاماج هو رمية السهم قاب قوس واحد (٢) — خرج إلى الصحراء ورمى في الفضاء على غير علامة كذلك . فاذا رأى سهامه في الهراء صحيحة مستوية غير مضطربة رجع إلى الأستاذ ليعلمه الرمي إلى العلامة ، وذلك بأن يمرنه على الوقوف تجاه العلامة منحرفاً قليلاً ، ويجعل العلامة محاذية لعينه اليسرى ؛ وركبته اليسرى واستواؤها على أصابع رجله قبالة العلامة طولا ، ورجله اليمنى عرضاً ؛ ويجعل بين الرجلين فرجة قدرها ذراع ، فيكون عقب الرجل اليسرى قبالة بياض الرجل اليمنى من داخلها ، ويعتمد على رجله اليمنى ويخف برجله اليسرى (٣) ويرمي المتعلم أول يوم خمسة أرشاق وأقل من ذلك على قدر قوته وإحكام صنعته ، ثم يعمل على زيادة الرمي حتى يمهر في ذلك وتكثر صوابه (٤) .

وعلى الراى أن يتعرف العيوب والآفات التي تعرض للرماة في نظرهم وبدنهم ، وعليه أن يقف على علل القسى والنشاب ومعرفة إصلاحها ، كما ينبغي أن يكون على علم بتقويم نشابه وقوسه وعقد أوتاره وإصلاح عيوبها ، فضلاً عن معرفة أحكام الرهن والرمى الحلال والسباق والمناضلة ، فاذا عرف ذلك صار رامياً ودخل في جملة الرماة (٥) .

وعلى هذا النحو سار مؤلفو كتب الفروسية في شرح قواعدها وأساليب تعليمها للمتعلمين حتى ينتهوا من دراستهم .

(١) كتاب بنية المرامي ص ٢٨ ب .

(٢) ابن القيم : الفروسية ص ١٠٧ .

La distance à laquelle un arc peut lancer une flèche (Dozy : Supp. Dict. Ar.).

(٣) كتاب بنية المرامي ص ٤ ب .

(٤) علم الفروسية ص ١١١ ب (مخطوطة بدار الكتب رقم ٥ م فنون حربية) .

(٥) كتاب بنية المرامي ص ٢٧ ب .

وفي أثناء المراحل المختلفة لتعليم المالك في الطباق أشرف على هذه المراحل كلها جماعة الطواشية ، لأنهم المسئولون عن سلوك المالك وتربيتهم ومراقبة عدم اختلاط الكبار بالصغار منهم .

وجرت العادة في مراحل التعليم بالطباق أن لا يتناول المملوك الصغير راتباً أو أجراً ، ولا يملك سلاحاً ولا حصاناً ، ولا يحصل على إقطاع ، فإذا تم عتقه يخرج السلطان له خيلاً وقماشاً^(١) وبذا يصبح من المالك السلطانية ، ويحصل من السلاح خاناه على جميع أنواع الأسلحة من السيوف والقسي والنشاب والرماح والدروع والقرقلات والأطبار وغيرها^(٢) . أما الخيل فتأتي من اصطبل الجوق الذي يختص بخيول الخرج^(٣) . وعند العرض يحصل هذا المملوك على إجازة بانتهاء تعليمه يطلق عليها عتاقة . لأنها تشير إلى عتقه ، وإلى أنه غدا جندياً مدرباً . ويطلق على هذا العرض الذي يعتق فيه المالك بعد الفراغ من مراحل تعليمهم المختلفة « خرج » أي التخرج . غير أنه لا يوجد بالمراجع المعروفة ما يوضح تماماً مدة مراحل التعليم للمملوك الكتابي ما عدا ما ذكره ابن تغري بردي في عتق ططر زمن السلطان برقوق بأن « عادة برقوق جرت بأنه لم يخرج للمالكة خيلاً إلا بعد إقامتهم في الأطباق مدة سنتين . وأنه لا يخرج في سنة واحدة خرجين . وإنما يخرج في كل مدة طويلة خرجاً من ممالكه ، ثم يتبعه بعد ذلك بمدة طويلة يخرج آخر ، وهذه كانت عادة ملوك السلف^(٤) » . ومع ذلك لم يحفل سلاطين الدولة المملوكية الثانية بمدة تعليم ممالكهم ، بل اهتموا بتخريجهم أفواجاً بعضها تلو بعض في سرعة غير محمودة ، وكان هذا عاملاً من عوامل الضعف^(٥) .

وجرت العادة بأن يعتق المالك جماعات ، ولم يحدث أن مملوكاً أعتق

(١) المقود بالقماش هنا رداء الخدمة وما يرتبط به من الأدوات الحربية كالسيوف والتركاش

وغیرهما (انظر Mayer : Mamluk Costume p. 77)

(٢) القلقشندی : صبیح الأعشی ج ٤ ص ١٦ .

(٣) الظاهری : زبدة كشف المالك ص ١٢٥ .

المقریزی : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٥ .

(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٨ ، ص ٥٠٩ .

(٥) العرینی : نظام الفروسية ص ٩٧ - ٩٨ .

بمفرده ما عدا جقمق الذى تول السلطنة فيما بعد ، وذلك لظروف استثنائية ، إذ أن أخاه جاركس القاسمى المصارع من أعيان خاصكية السلطان برقوق سعى عند السلطان ، فاشتراه من أحد الأمراء وجعله من الممالك الكتابية بطبقة الزمام ، ولم يستمر جقمق فى هذه الطبقة مدة طويلة ، بل أعتقه برقوق بمفرده بفضل ما لأخيه من مكانة عنده ، فصار من الممالك السلطانية ، وبذا نالته السعادة وارتقى فى الوظائف فى سرعة (١) .

وحرص السلاطين على ألا يعتقوا ممالكهم قبل سن البلوغ ، فيظل المملوك الذى يدخل الطباق فى سن مبكرة عدة سنوات حتى يعتق . ويعلق المملوك أهمية كبرى على عتقه وفقاً لقواعد الشريعة : فإذا تبين أن مملوكاً من الممالك لم يجر عتقه على هذا النحو ، فيعتبر باقياً فى رق من اشتراه وملكه أو فى رق ورثته ولو بلغ فى هذه الحالة رتبة أمير مائة . ومن هذا القبيل ايتمش الاسندمرى الذى بلغ رتبة أمير مائة زمن السلطان برقوق ، ولما تبين أنه ما زال فى رق ورثته الأمير جرجى نائب حلب ، اشتراه برقوق من جديد وأعتقه وجعله أتابك العساكر (٢) .

الواضح الآن أن طبقة ممتازة نشأت بمصر من طوائف الممالك ، وتعين على الفرد منهم أن يكون فى الأصل رقيقاً ، وأن تتحقق فيه شروط خاصة ، منها أنه لا يكون قبل جلبه إلى مصر مسلماً أو من أصل إسلامى ، إذ أن الرق لا يجرى على المسلم ، كما ينبغى أن يكون المملوك مولوداً خارج الدولة المملوكية ببلاد القفجاق تفضيلاً فى العصر المملوكى الأول أو ببلاد القوقاز والحرکس فى العصر المملوكى الثانى ، وأن يكون جلبه فى سن مبكرة ، وعلى الرغم من أن هذه الشروط لم يعتد بها فى كثير من الحالات ، فإنها ظلت موضع تقدير بدليل أن أبناء الممالك الذين ولدوا فى مصر وغيرها من بلاد الدولة المملوكية لم يعتبروا من الطبقة الممتازة ، ويدل على أحوال الوافدية والمستأمنين فى العصر المملوكى الأول وأحوال جماعات الهجرات التى جاءت إلى مصر فى العصر المملوكى الثانى .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٤ - ٣٥ .

(٢) العرينى : نظام الفروسية ص ٩٩ .

ومن المعروف أن هؤلاء وأولئك صاروا في أجناد الحلقة أقل شأنًا من المالك السلطانية الذين اتخذوا وسائل كثيرة للمحافظة على طبقهم وامتيازاتها .

على أن الرق فحسب لم يكن كفيلا بنجاح المملوك ، ممثلاً إذا اشترى أحد العوام مملوكاً من المالك ، فلا يواتيه حظ المملوك الذى يشتريه السلطان أو الأمير ، والمعروف كذلك أن مملوك الأمير يقل فى الرتبة والمكانة عن مملوك السلطان ، وأن من العقوبات الصارمة التى يفرضها السلطان على أحد المالك السلطانية أن ينقله إلى خدمة الأمراء ، وتابع سلاطين المالك هذه الخطوة معظم الأحيان لإبعاد ممالك السلاطين السابقين لهم ، فوزعوا غير المرغوب فيهم على الأمراء حتى يخلو الجو للسلطان وممالكه السلطانية (١) .

والمالك السلطانية الذين تلقوا تعليمهم وتدريبهم بالطباق إنما يتخرجون جنوداً فحسب ، فالعتاقة التى يحصلون عليها عند الانتهاء من هذا التدريب ليست إلا شهادة تمنح للمملوك وتشير إلى أنه أصبح حراً ، وأنه أتم تعليمه . ويتضح من تراجم الأمراء والسلاطين التى وردت فى المصادر المملوكية أنهم تساوا جميعاً فى المرحلة الأولى من حياتهم ، إذ جلبهم التجار أرقاء ودخلوا فى ملكية أحد السلاطين ، ثم نزلوا بالطباق حيث تلقوا تعليمهم الحربى ، ثم نالوا العتاقة وحصلوا على الجليل والقماش فبلغوا بذلك مرتبة الجندية .

ويختار السلطان من هؤلاء المالك بعد تخريجهم من الطباق عدداً يلحقهم بخدمته ويختص بهم لصفات فيهم ، ويطلق على هؤلاء الخاصكية فيتدرجون قبل تأميرهم فى وظائف الحمدارية والسلحدارية والجمعقدارية ، ويسيرون فى سلم الترقى أسرع من سائر المالك السلطانية (٢) .

وظلت قواعد تربية المالك التى وضعها سلاطين الدولة المملوكية الأولى مرعية سائدة حتى أوائل العصر المملوكى الثانى ، غير أنه أصابها من التغيير والتبديل ما جعل المؤرخين يطلقون على أولئك السلاطين الأوائل ملوك السلف ،

(١) العيى : عقد الجمان ج ٦٦ ص ٣٤٨ ، ٣٥٢ .

ابن تغرى بدوى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٨ ص ٤٩ ، ٢٧٧ .

(٢) العريى : نظام الفروسية ص ١٠٧ .

وإذا أطروا عملاً قام به سلطان من سلاطين العصر المملوكى الثانى فان إطرأهم يكون بسبب مطابقة هذا العمل للقواعد القديمة (١) .

وجرى التقليد منذ قيام الدولة المملوكية الأولى على أنه إذا تأمر أحد من الممالك ، نزل من قلعة الجبل وعليه التشريف والشربوش وأوقدت له شوارع القاهرة ، فيسير إلى المدرسة الصالحية بين القصرين ويحلف عند قبر الصالح أيوب بالقبة بجوار هذه المدرسة . ويحضر تحليفه حاجب الحجاب وخصاصكية السلطان ، ثم يمد السباط السلطانى لمن حضر وشارك الاحتفال بتنصيب الأمير ، ثم يخرج الأمير فى موكب من القبة الصالحية إلى القلعة (٢) . وأدخل سلاطين بيت قلاون تقاليد وقواعد جديدة ، منها اتخاذ المدرسة المنصورية مكاناً يجرى فيه الاحتفال بتنصيب الأمير . ومنها ركوب الأمير فرسه تحت السنجد يحف به الأمراء ، وطلوع الأمير إلى حضرة السلطان بالقلعة حيث يبوس الأرض ثم يقبل يد السلطان (٣) .

وحرص كل سلطان أن يجعل الأمراء من مشروعاته ليضمن ولاءهم له والمحافظة على ملكه ووضع هذه السياسة الصالح أيوب ، وجرى سلاطين الممالك على هذه السنة (٤) .

على أن ترقية الممالك السلطانية فى وظائف الدولة وما يتبعها من الانتقال من رتبة إلى أخرى خضعت لاعتبارات مختلفة منها علاقة الملوك بالسلطان ، فالخاصكية أسرع الممالك فى الترقية . أما الاعتبار الثانى فهو العصبية والجنسية . وتجلب أهمية هذه القاعدة منذ أخذ نفوذ البرجية أو الجراكسة يشتد بعد عودة السلطان الناصر محمد بن قلاون إلى السلطة للمرة الثانية بفضل ازدياد نفوذ الأمير بيبرس الحاشنكير ، فغدا نواب البلاد الشامية من البرجية وخجداشية بيبرس فقوى أمره بهم (٥) .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣١٦ ، ٥٠٩ .

منتخبات من حوادث الدهور ص ٣٧٨ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢١٩ .

المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٨٥ - ٣٨٦ .

(٣) العيني : عقد الجمان ج ٦٢ ص ٢٤٨ .

المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٢١٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤ .

(٤) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٣٣٩ - ٣٤٠ ، ٦٧١ - ٦٧٢ .

(٥) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ج ١ ص ١٣٦٨ .

وازداد شأن صلة القرابة في دولة الجراكسة فأصبح القفز إلى الرتب العليا دفعة واحدة أمراً مألوفاً ، وساد في هذا العصر المملوكي الثاني محابة السلاطين وكبار الدولة لأقاربهم والإنعام عليهم بالرتب والاقطاعات^(١) في غير نظام .

ومن الاعتبارات التي لها أهميتها في الترقية أيضاً ما يرتبط به الممالك معاً من صلات الزمالة في الرق والعنق والعمل والخدمة ، ويطلق على هؤلاء الرفقاء خجداشية أو خشداشية^(٢) . وأثرت هذه الرابطة في اختيار السلاطين ، فإذا تولى السلطان الحكم عمل للخشداشية كل حساب . ومن الأمثلة على ذلك ما اشتهر به السلطان أيلك من الإدارة للخشداشيتة والصبر الطويل على مناوئتهم له وسوء أخلاقهم^(٣) . وحرص السلطان بيبرس الجاشنكير على تعيين خشداشيتة نواباً في الممالك الشامية^(٤) . ولم يصل كمشغبا بن عبد الله الحموي اليلبغاوي إلى وظيفة أتاك العساكر بالديار المصرية زمن السلطان برقوق إلا لكونه خشداشه^(٥) . واشتهر السلطان خشقدم بالعطف على خشداشيتة فرقاهاهم إلى الوظائف العالية^(٦) .

ومهما يكن لهذه الاعتبارات المختلفة من أهمية في ترقية المملوك في وظائف الدولة . فان سلاطين الممالك لم يغفلوا ما للفروسية وإجادة الفنون الحربية من التقدير والاعتبار عند ترقية المملوك ولا سيما في العصر المملوكي الأول . ففي أثناء مهاجمة السلطان بيبرس انطاكية سنة ٦٦٦ حدث أن تمكن جندي من أسر كندا صطبل عم هيثوم ملك أرمينيا الصغرى وأحضره إلى السلطان فأعطاه بيبرس عشرة طواشيتة وأمره بحمل رفك كندا صطبل على سنجقه المملوكي الإسلامي^(٧) . وتأمر محمد بن أمير سلاح بكتاش الفخرى زمن السلطان قلاون لأنه اشترك رغم صغر سنه في محاربة الأمير سنقر الأشقر الذي خرج على طاعة قلاون

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٢٤٣ ب ، ١٤٥٦ ،

ج ٢ ص ٦٢ ، ج ٣ ص ٢٥ ب .

(٢) العرينى : نظام الفروسية ص ١١٤ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٧ ص ٣٢ .

(٤) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ١٣٦٨ .

(٥) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٢ ص ١٥٧ .

(٦) السخاوى : الضوء اللامع ج ٦ ص ٢٠١ ، ج ١٠ ص ١٦٤ .

(٧) العيني : عقد الجمان ج ٥٥ ص ٥٣٩ .

وأعلن نفسه سلطاناً في دمشق (١) . وأبى قلاون أن يستجيب لرجاء الأمير طرنتاوى نائب السلطنة بالديار المصرية في الانعام بإقطاعية في الحلقة على ولده وولد الأمير كيتغا الذى تزوج بابنته لأنه لم يرهما في مصاف القتال يضربان بالسيف يوماً من الأيام (٢) .

ولم تعين المصادر المملوكية عدد السنوات التى يقضيها المملوك لارتقائه من رتبة إلى أخرى ، بل اكتفت بالإشارة إلى ضرورة مضي مدة لطبقة على قول ابن تغرى بردى . فمثلاً بعد أن أم المملوك شيخ تعليمه بالطباق ، وأخرج له السلطان برقوق خيلاً وقماشاً وجعله في حملة الحمدارية ، نقله برقوق بعد مدة لطبقة إلى الخاصكية ، ثم بعد مدة أخرى أصبح شيخ ساقياً ، وصارت له مكانة عند السلطان ، ثم صار أمير عشرة سنة ٧٩٤ ، ثم أمير عشرين ثم أربعين وبذا أصبح أمير طبلخاناه . ولما تعين الأمير ايتمش للوصاية على المملكة بعد وفاة برقوق أعطى للأمير شيخ سنة ٨٠١ مقدمة ألف وهى أعلى المراتب ، أى أن شيخاً استغرق في سلم المراتب المملوكية بعد تأميره نحو ثمانى سنوات ، ولم يزل يناضل حتى بلغ كرسى السلطنة سنة ٨١٥ (٣) .

وليس الاقطاع هو كل ما يحصل عليه المملوك بعد عتقه من أرزاق ، بل يتقاضى كذلك أنواعاً مختلفة من النفقات والرواتب في أوقات معينة ، فمنها الحامكية وهى الراتب الشهرى الذى يصرف للمالك السلطانية (٤) ، والنفقة وتمنح في أوقات غير منتظمة وعلى الأخص قبيل تسير الحملات الحربية ، فتعطى للجندى أو الأمير لينفق منها على تجهيز نفسه ومماليكه وخيله (٥) . ومن النفقة كذلك ما يوزعه السلطان كذلك عند توليته السلطنة على الأمراء والأجناد ، ففي سنة ٨٠١ حصل الممالك السلطانية على نفقة سلطنة الناصر فرج (٦) .

(١) العيني : عقد الجمان ج ٦٣ ص ٤٨٠ .

(٢) المقرئى : الخطط ج ٣ ص ٣٥١ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٢ - ٣٢٣ المنهل الصافي ج ٢ ص ١٨٩ ب

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٨٧ .

(٥) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٦٨٢ - ٦٨٣ ، ٨٨٥ .

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦ - ٧ .

وأعطى السلاطين النفقة في غير هذا وذلك من الأوقات استجلاباً للقلوب، فجعل السلطان الناصر محمد بن قلاوون لكل مملوك خمسمائة درهم وقرقل وخوذة، وذلك سنة ٧٤٠ حين جمع الأمراء وحلف المجردين والمقيمين منهم لولده الأمير أبي بكر بعده (١).

وحصل الأمراء والمماليك على الكسوة بالإضافة إلى الجوامك والنفقات، في الغالب، كان توزيع الكسوة عليهم سنوياً، غير أنه ربما أخذوها على دفعتين في السنة، للصيف والشتاء (٢). وفي العصر المملوكي الثاني جرى التقليد على أن يصرف السلطان ثمن الكسوة للمماليك (٣). ومن بين الكلف السلطانية توزيع الأضاحي على المماليك في كل سنة، فضلاً عما تقدمه الخواصل السلطانية للأمراء في كل يوم من رواتب اللحم والتوابل والخبز والزيت والعليق (٤). ويفرق السلطان الخيل على مماليكه، وكل من مات له فرس دفع إليه عوضه، وجعل السلطان للأمراء والمماليك في كل سنة إطلاقات بالأعمال الحيزية لربيع خيولهم من القرط (البرسيم)، وما يدفع إليهم من القرط يكون بدلاً من عليق الشعير المرتب لهم في غير زمن الربيع (٥).

وأشارت كتب الفروسية إلى أهمية قيام الفارس بإعداد فرسه بانتخاذه ما يناسبه من أدوات الركوب كاللجام والسرّج والركابين، وتفقد سير الركاب

(١) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٤٩٩.

(٢) المقرئزي: الخطط ج ٣ ص ٣٥١.

القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٥.

(٣) ابن تفرى بردي: منتخبات من حوادث الدهور ص ١١٣.

ابن إياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ٥٧.

(٤) المقرئزي: الخطط ج ٣ ص ٣٥١.

القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ٥١، ٥٦.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٤.

حرص سلاطين المماليك - ولاسيما في العصر المملوكي الأول - على اقتناء الخيول الجيدة من بلاد البحرين وأرمينيا الصغرى وشمال الشام والجزيرة وبلاد المغرب. انظر المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٥٢٦ - ٥٢٧.

القلقشندي: صبح الأعشى ج ٧ ص ٣٧٠.

العيني: عقد الجمان ج ٦١ ص ٣٥٨.

والأبازيم ، واستخدام ما يصلح من اللبود للفرس عند القتال ، ومراعاة كفايتها لتغطية خصرتي الدابة ، فضلا عن العناية بالبداين والمرشحة لما لها من الأهمية في سرعة الفرس وخفته (١) ، وتلبس الخيول عند القتال البركستوانات والوجوه بالفولاذ (٢) .

أما عدة الفارس الحربية فتشمل أدوات الدفاع وأدوات القتال ، فمن أدوات الدفاع الدرع وهو جُبّة من الزرد المنسوج يلبسها المقاتل لوقاية السيوف والسهم (٣) ويلبس عادة فوق قميص . وقد يرتدى الفارس درعين ، وبعض الدروع مفرط في الطول حتى يبلغ الأرض ويغطي قوائم الفرس ويطلق عليه زردية سابلة أو مسبلة (٤) ويختلف الجوشن عن الدروع بأن الدرع مكون من حلقات متصلة في شكل سلاسل ، بينما تكون الجوشن من حلقات يفصلها عن بعضها قطع صغيرة من الصفائح ، وساد استعمال الجوشن في العصر المملوكي الأول ، ولم يستعملها إلا كبار الأمراء في العصر المملوكي الثاني لارتفاع أثمانها (٥) ومن تعاليم الفروسية أن يدمن صاحب الجوشن لباسه بنفسه ، حتى يسهل عليه لبسه ، وأن يعلم تواليفه وخياطته ، وأن يكون معه سيور وخيوط وحلق وأبازيم وشفاه ، وأن يتعاهده كل يوم عند نزوله وإقامته ، وأثناء الشتاء والمطر والبلل ، يميّطه عن علاقته ورباطه لئلا يفسد ، وأن يجعل الفارس تحت الجوشن حشوة حتى يدفع عنه الحر والبرد وضرب العمود (٦) . وفي العصر المملوكي ساد عمل القرقلات من الزنجاج المتخذة من الحديد والتي يتصل بعضها ببعض (٧) ،

(١) كتاب علم الفروسية ١٧٨ ، ب (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥ م) .

القلقشندي : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٢٨ - ١٢٩

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٦ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٣٦ .

(٤) Mayer : Saracenic Arms and Armor, p. 2 (Ars Islamica Vol. X. 1943).

المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٦٠٨ .

(٥) Mayer : Op. Cit. p. 3

(٦) كتاب الجهاد والفروسية ص ٤٥ ، ب ، ٤٦ (مخطوطة رقم ٣ م فنون حربية بدار الكتب المصرية) .

(٧) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٣٦ .

واشتهرت القرقلات المحفوظة بالزردخانات السلطانية بأنها مغشاة بالديباج الأحمر والأصفر ، ولم يخرج القرقل عن أنه زردية بغير أكمام مصنوعة من صفائح حديدية ومبطنة بالحرير (١) .

أما غطاء الرأس فقد ميز القلقشندى بين نوعين : البيضاء وهي آلة من حديد أو من زرد توضع على الرأس لوقايتها من الضرب . وليس بها ما يرسل على القفا والأذنان ، والمفغر وهو كالبيضة ، غير أن فيه أطرافاً مسدولة على قفا اللابس (الدارع) وأذنيه وربما جعل منها وقاية لأنفه أيضاً (٢) . والخوذة تطلق على كل ما يقي الرأس دون أن تدل على شكل من الأشكال .

والترس هو من الأدوات التي يتقي بها المحارب الضرب والرمي عن الوجه (٣) ويصنع من الخشب أو الحديد أو الجلد . وللترس خمائل وسموطان ، يدخل الفارس رأسه في وسط الحميلة ويجعل يده في سموط ، ويضبط بالإبهام السموط الدائر (٤) . والتروس على أشكال منها المسطح والمستدير ومنها المستطيل في أعلاه المحصر الوسط مما يلي أعلاه (٥) . واستخدم الفارس الساعدين والساق موزا لحماية يديه وساقيه (٦) . أما الخف فبطن بالزرد كذلك (٧) . وأشهر أسلحة الهجوم السيف والرمح والقوس ، فيشد الفارس السيف والتركاش في وسطه ، ويأخذ الطارقة بشماله والرمح بيمينه ، ويجعل الخنجر في خفه (٨) . وينصح معلمو الفروسية بأن يعمل الفارس على أن يوافر له من الأسلحة ما يضرب ويطعن به ويرمي عنه (٩) ، فيفيد من العمود في ضرب أنف الرجل ومقدم

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٢ . Mayer : Op. Cit. p. 4.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٣٥ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٣٦ .

(٤) كتاب الجهاد والفروسية ص ١٣٤ (مخطوطة ٣ م فنون حربية بدار الكتب المصرية) .

(٥) كتاب الجهاد والفروسية ص ٣٩ ب .

(٦) كتاب الجهاد والفروسية ص ١٤٥ .

(٧) المقامة الصلاحية ص ١١ .

(٨) كتاب الجهاد والفروسية ص ٤٧ ب .

كتاب علم الفروسية ص ١١ ب .

(٩) كتاب الجهاد والفروسية ص ١٤٦ .

رأسه وعضده وخطم دابته (١) ، أما الوهق فهو المقلاع ويعلقه الفارس في
مقدم قربوس سرجه من جهة اليمن (٢) ، والطبر هو البلطة وموضعه حلقة
أعدها له الفارس في سرج فرسه (٣) .

ويقوم كاتب الجيش بإضافة كل جماعة من الممالك السلطانية إلى مقدم
من أعيانهم ، ويميز أرباب الوظائف منهم من السلاحدارية والحربدارية
والحمدارية والحمدقدارية ، والزرذكشية والبندقدارية ، ومن السقاة والحمدارية
والخزندارية والحراس والبشمقدارية وغيرهم ، ويضيف كل جماعة من كل طائفة
منهم إلى شخص معين من جملتهم ، وأما الممالك الكتابية فينتسب كل جماعة منهم
إلى طبقة مقدمها من الطواشية ، وينسب الممالك البرجية إلى مساكنهم ومقدمهم ،
والأوشاقية إلى المقدم عليهم من الطواشية . ويرجع سائر الممالك السلطانية إلى
مقدمهم الكبير ، ولا يكون في الغالب إلا من الطواشية الأمراء (٤) ، وهو
الذي يعين مواقفهم في أوقات البيكار والحرب وفي الأسفار حول الدهليز
السلطاني (٥) .

على أن بيبرس المنصوري الداوادر ، وهو ممن اشترك في مقاتلة التتار
في وقعة حمص سنة ٦٨٠ ، أورد وصفاً لما جرى من تعبئة الجيش المملوكي
وقتئذ ، فأشار إلى أن السلطان قلاوون حين علم بقدوم التتار إلى حارم وامتلاكهم
البلاد ، أمر الناس أن يلبسوا في كل يوم عدد الحرب ويركبوا ويصطفوا ليتمرنوا
على الحرب ، ثم أصلح ما جرى من نزاع بينه وبين سنقر الأشقر صاحب
صهيون على أن يشترك بمن معه من الجنود والأمراء في القتال ، وضرب السلطان
دهليز الحرب الأحمر ، وحين جاءت الأخبار بحركات العدو وعددهم وعدتهم
رتب السلطان الجيش ميمنة وميسرة وقاباً وجناحين ، وبات المسلمون على

(١) كتاب الجهاد والفروسية ص ١٤١ .

(٢) كتاب الجهاد والفروسية ص ٤٨ ب .

(٣) كتاب الجهاد والفروسية ص ٤٧ ب .

Mayer : Mamluk Costume p. 47.

(٤) التويرى : نهاية الأدب ج ٨ ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٥) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١١ ص ١٧٣ .

ظهروا الخيل لابسين لامات الحروب مدرعين هم وخيولهم، وكتب صاحب حماه إلى السلطان بأن عدة جيش التتار ثمانون ألف مقاتل، تحت القلب منها أربعة وأربعون ألفاً وهم طالبون القلب، وميمنتهم قوية جداً، ونصح بتقوية ميسرة المسلمين والاحتراز على السناجق (١).

وجرت وقعة خص يوم الخميس ١٤ رجب سنة ٦٨٠، وتكونت ميمنة جيش السلطان قلاون من عسكر حماه، وبعض أمراء الألوف ومضافيهم من أمراء الطبليخانات وأصحاب العشرات ومقدمي الحلقة وأجنادها وغيرهم من العسكر، ونائب الشام وأمراء الشام والعسكر الشامي، وفي رأس الميمنة أمراء عربان البلاد الشامية ومن انضم إليهم، أما الميسرة فشملت بعض أمراء الألوف ومضافيهم كذلك، وفي رأس الميسرة التركمان بجموعهم وعسكر حصت الأكراد (٢). وفي الجاليش وهو مقدم القلب نائب السلطنة ومضافوه من الأمراء والمغاردة ومماليكه وأجناده وبعض المقدمين ومن معهم من المماليك السلطانية. ووقف السلطان تحت السناجق وحوله مماليكه والزامه والسلحدارية والسنجقدارية والطبردارية (٣). وبدأ القتال بتركيز العدو هجومه على ميمنة جيش المنصور، فثبتت العساكر للقتال والتفوا على التتار فمالوا على ناحية جاليش (مقدم) القلب، غير أنهم منوا بالكسرة والهزيمة وانهمز ملكهم منكوتر وولى هارباً (٤). فتكون قلب الجيش من المماليك السلطانية وهم الذين تعرضوا للصدمة الأولى من العدو المهاجم وهم الذين قرروا مصير المعركة.

على أن نظام الفروسية المملوكية حمل في طياته بذور الانحلال والفناء حتى إذا تجمعت هذه البذور أواخر الحكم المملوكي لأسباب سياسية واقتصادية وحريرية فقد هذا النظام روحه وجوهره، وظل محتفظاً بالمظهر الخارجي حتى بداية القرن التاسع عشر الميلادي.

(١) بيارس الداوادر : زبدة الفكرة ص ١٧٢ - ١٧٣ .

(٢) بيارس الداوادر : زبدة الفكرة ص ١٧٤ - ١٧٥ .

(٣) بيارس الداوادر : زبدة الفكرة ص ١٧٦ .

(٤) بيارس الداوادر : زبدة الفكرة ص ١٧٦ .

فالواضح أن القواعد التي قامت عليها القروسية المملوكية تركز إلى ما حصل عليه الممالك من تدريب حربي وديني أثر في خلقهم وحدد سلوكهم ومستقبلهم ، فضلاً عما التزمه هذا النظام من ولاء المملوك وإخلاصه لسيده ووفاقه في الرق والعق ، وتقدير كفاءة المملوك عند ترقيته في الرتب والوظائف ، وطول المدة في الطباق حتى تتأصل في نفس المملوك الصفات التي تخلق منه فارساً ملماً بأصول القروسية .

غير أن هذه القواعد أصابها كثير من الخلل والاضطراب ، فلم يعد السلاطين الجراكسة يحفلون بأن تطول مدة بقاء المملوك في الطباق ، فيخرج مفتقراً إلى التدريب الجيد والخلق القويم والولاء الصحيح . يضاف إلى ذلك كثرة جلب البالغين من الممالك الذين جاءوا بعد أن تكونت أخلاقهم وامتهنوا حرفاً في بلادهم ، وكثير من هؤلاء المجلوبين يمتون بصلة القرابة والنسب للسلاطين والأمراء في مصر ، فضلاً عن هجرة عدد كبير بسبب ما حاق ببلادهم من خراب نتيجة إغارات تيمورلنك ، فنقلوا معهم مساوئهم ورذائلهم ، فغدوا مصدراً للشر والفتنة في البلاد ، ونسب إليهم المقریزی ما أصاب البلاد من خراب (١) .

ومن العوامل التي أضعفت هذا النظام ارتباطه بنظام الحكم ، إذ تأثر ولاء المملوك بما أصاب نظام الحكم من هزات وضربات . فالمحاولات التي قام بها السلاطين في العصر المملوكي الأول لجعل الحكم وراثياً لم تحظ بالموافقة الإجماعية من الأمراء ، ومن الأمثلة على ذلك ما بدا من مقاومة الأمراء لحكم ابن إبيك ولحكم السعيد بن بيبرس واضطرار الناصر محمد بن قلاوون إلى التخلي عن السلطنة لبعض الأمراء الأقوياء (٢) . وفي عصر الجراكسة أدخل مبدأ الوراثة نهائياً مع المحافظة على مهزلة تولية ابن السلطان المتوفى مدة قصيرة جداً ، فأصبح من العسير على الممالك أن ينقلوا ولاءهم من سلطان إلى آخر . ففي عصر الجراكسة أصبح الممالك المشترون هم الدعامة الوحيدة التي يركز عليها السلطان في مقاومة

(١) المقریزی : الخطط ج ٢ ص ٢١٣ - ٢١٤ .

(٢) العريني : نظام القروسية ص ٢٣٦ .

الفئات الأخرى من المماليك السلطانية ، وعلى الأخص ممالك السلاطين السابقين المعروفين بالقرانيص . فالسلطان ومشترواته هم الذين يتمتعون بالسلطان والنفوذ والثروة ، إذ جرى السلطان على أن يفسح لهؤلاء المشتروات الطريق ليظفروا بالقوة والسلطة ، فضلاً عن الإكثار من عددهم ، ولعلّ هذا هو السر في أنه كلما ارتقى سلطان جديد دست السلطنة أجرى عقب توليته حركات تطهيرية عنيفة ترمى إلى التخلص من ممالك السلطان السالف له في الحكم ، فأقصاهم عن وظائفهم وألقى بهم في السجن أو نقلهم إلى جهات نائية أو إلى خدمة الأمراء. ونجم عن ذلك أن تكون من الممالك السلطانية طوائف لم تكن متجانسة ولا متماسكة لأنها من عناصر مختلفة ومتعادية تدين بالولاء إلى سلاطين مختلفين ، ولم تجتمع هذه الطوائف إلا على كراهية المشتروات . وتوافرت أسباب هذه الكراهية زمن الحراكسة لقصر عهد سلاطينهم ، فتكونت منهم عدة تشكيلات انتمى أفرادها إلى السلاطين الذين اشتروهم وجلبوهم مثل الأيانية والحكمية (١) والحشقدمية ، وانصرف الاجلاب إلى إهمال الواجبات الحربية بعد أن ضمنوا لأنفسهم مصادر الثروة والسلطة والنفوذ مما جعل السلاطين يعتمدون في حملاتهم الحربية على القرانصة برغم عداوتهم للمشتروات الجلبان وحنقهم عليهم لما استأثروا به من الاقطاعات والرتب والوظائف . وتجلّى ذلك منذ منتصف القرن التاسع الهجري زمن السلطان اينال ، إذ طفحت المصادر المملوكية بأخبار ثورات الجلبان ونزاعهم مع العناصر المملوكية الأخرى في الجيش ، فضلاً عن استبدادهم بأمور الدولة وانقياد السلطان لهم (٢) .

ويشير ابن تغرى بردى إلى ما وصلت إليه حال الممالك من الانهيار في القرن التاسع الهجري بأنهم مع قلتهم وضعف بنيتهم وعدم شجاعتهم ، غدا شرهم في الرعية معسروفاً ، ونفعهم عن الناس مكفوفاً ، على الرغم من أنه لم يقع في هذا القرن لقاء مع خارجي غير وقعة تيمور وغزو جزيرة قبرص ،

(١) العرينى : نظام الفروسية ٢٣٧ .

(٢) ابن تغرى بردى : منتخبات من حوادث الدهور ص ٤ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٤ ،

١٧٥ ، ١٩٢ ، ٢١١ ، ٢٢٣ ، ٢٣٩ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٣٦ .

النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٤١ ، ج ٧ ص ٤٥٢ ، ٤٦٢ .

ويذكر ابن تغرى بردى عن ضعفهم وعجرفتهم وعدم خبرتهم الحربية بأن الواحد منهم أنفه في السماء ، ولا يهتدى لمسك بلحام الفرس ، ليس لهم صناعة إلا نهب البضاعة ، يتعدون على الضعيف ويشرّهون حتى في الرغيف ، جهادهم الإخراق بالرئيس ولا مروءة لهم (١) .

ووضحت أحوال الانحلال المملوكى تماماً حين أخذ السلطان الغورى بعد العدة من جانبه لمواجهة الجيش العثمانى سنة ١٥١٦ ، فحاول تسوية مشاكله الداخلية التى نشأت عن ثورة مماليكه السلطانية من الجلبان الأحداث والقرانيص القدماء بسبب تأخر جوامكهم . وهال الغورى أن ينغمس مماليكه فى الفتنة مع ما بالدولة من حاجة إلى الانصراف لشئون الحرب المنتظرة ، ومع ما بها من فقر وارتباك مالى بسبب استحواذ البرتغاليين على معظم تجارة الهند وأرباحها من أواخر أيام قايتباى ، ولم يبق لدى الغورى إلا أن يرضى مماليكه بفرق فيهم الأموال لشراء ما يلزم من آلة الحرب (٢) . غير أنه ما لبث أن وقع الشقاق والنفار بين الفئات المختلفة من المماليك فى وقعة مرج دابق بعد أن أشاع خايربك بين المماليك القرانصة أن السلطان أمر مماليكه الأجلاب ألا يتقدموا للقتال حتى يصدر أمره إليهم ، وفسر القرانيص ذلك بأنه خطة دنيئة من السلطان الغورى ليجزيهم وعدهم بما ارتكبوا فى حقه فى سابق السنين ، فكان ذلك سبباً كافياً لتثبيط الهمم وحلول الهزيمة بعد فرار جنود الميمنة والقلب (٣) .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٧ ص ٣٢٨ - ٣٢٩ .

(٢) زيادة : نهاية السلاطين المماليك فى مصر ص ٢١٣ .

(٣) زيادة : نهاية السلاطين المماليك فى مصر ص ٢١٩ .

المصادر والمراجع

ابن الفرات : محمد بن عبد الرحيم

تاريخ الدول والملوك - الأجزاء ٧ ، ٨ ، ٩ (١٩٣٦ - ١٩٤٢) -
نشرة الدكتور قسطنطين زريق والدكتورة نجلا عز الدين (منشورات
الجامعة الأمريكية ببيروت) .

ابن إياس : محمد بن أحمد المصرى الحنفى

بدائع الزهور فى وقائع الدهور - بولاق ١٣١١ - الجزء الرابع
والخامس - مطبعة الدولة باستانبول ١٩٣١ ، ١٩٣٢ .

ابن بكتوت الرماح : محمد

كتاب الفروسية وعلاج الخيل (ضمن مجموعة رسائل برقم ٤ م فنون
حربية بدار الكتب المصرية) .

ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن .

(١) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (الأجزاء ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩
مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٦ ، ١٩٣٨ : ١٩٣٦ ، ١٩٤٦
الأجزاء ٥ ، ٦ ، ٧ نشر Popper بكاليفورنيا ١٩٣٢-١٩٣٥ ،
١٩١٥ - ١٩٢٣ ، ١٩٣٦ - ١٩٣٩) .

(٢) المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى - مخطوطة رقم ١١١٣ تاريخ ٣
مجلدات - بدار الكتب المصرية .

(٣) منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور - نشر Popper
بكاليفورنيا ١٩٣٠ ، ١٩٣١ .

ابن حجر العسقلانى : أحمد بن على

الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ٤ أجزاء حيدر آباد - الهند
١٣٤٨ - ١٣٥٠ .

ابن يعقوب الخليلي : أبو حزام

(١) كتاب الفروسية والبيطرة في علامات الخيل وعلاجها — مخطوطة رقم ١٦١٠ طب بدار الكتب المصرية .

(٢) كتاب علم الفروسية — مخطوطة رقم ٥ م فنون حربية — بدار الكتب المصرية .

(٣) كتاب الخيل والفروسية — مخطوطة رقم ١٣٣٤ طب بدار الكتب المصرية (١)

أبو شامة : عبد الرحمن بن اسماعيل القدسي

كتاب الروضتين في أخبار الدولتين . مطبعة وادي النيل — القاهرة ١٢٧٨ ، ١٢٨٨ هـ .

السخاوي : شمس الدين محمد

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع — مكتبة القدسي — القاهرة ١٣٥٣ .

الظاهري : خليل بن شاهين

كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك — نشر Ravaisse باريس ١٨٩٤ .

العريني : السيد الباز

نظام الفروسية في مصر زمن سلاطين المماليك (مخطوطة لم تطبع بعد) .

العيني : بدر الدين محمود

عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ٧٠ مجلداً صورة شمسية بدار الكتب المصرية برقم ١٥٨٤ تاريخ .

القلقشندي : أبو العباس أحمد

صبح الأعشى في صناعة الإنشا ١٤ جزءاً مطبعة دار الكتب المصرية .

(١) لم يرد اسم المؤلف في المخطوطتين ٢ ، ٣ غير أنه تبين بعد مراجعة المخطوطات الثلاثة ومقارنتها أنها لمؤلف واحد وفي موضوع واحد برغم اختلاف العنوان .

المقرئزى : أأمد بن على

- (١) كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة
الجزء الأول ١٩٣٤ - ١٩٣٩ ، الجزء الثانى ١٩٤١ - ١٩٤٢ .
(منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة) .
(٢) كتاب الخطط والآثار فى مصر والقاهرة والنيل وما يتعلق بها من
من الأخبار - مطبعة النيل ١٣٢٦ - طبعة بولاق ١٢٧٠ .

التويرى : أحمد بن عبد الوهاب

- نهاية الأرب فى فنون الأدب - المطبوع منه ١٤ جزءاً - مطبعة دار
الكتب المصرية بالقاهرة (١٩٢٣ - ١٩٤٣) .
بكتوت : بدر الدين بن بكتوت الرماح الحازندار الظاهرى المتوفى سنة ٧١١ هـ
كتاب علم الفروسية - مخطوطة رقم ٤ م فنون حرية بدار الكتب المصرية
بيرس المنصورى الداوادر :
زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة صورة شمسية رقم ٢٤٠٢٨ بمكتبة
جامعة القاهرة .

زيادة : محمد مصطفى

- نهاية السلاطين الماليك فى مصر (المجلة التاريخية - المجلد الرابع - العدد
الأول - مايو سنة ١٩٥١) .
طبيغا الأشرفى البكلمشى اليونانى المتوفى سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٨ م)
(١) كتاب الجهاد والفروسية وفنون الآداب الحرية (مخطوطة رقم ٣ م
فنون حرية بدار الكتب المصرية) .
(٢) بغية المرام وغاية الغرام فى الرمى بالنشاب (مخطوطة رقم ٩٣ فروسية
بالتيمورية - بدار الكتب المصرية) .

لاجين : حسام الدين

- كتاب الميادين (ضمن مجموعة رسائل فى الفروسية - مخطوطة رقم ٤ م
فنون حرية بدار الكتب المصرية) .

يلبغا الأشرفى :

كتاب كامل الصناعتين فى الفروسية والشجاعة (فى المجموعة رقم ٤ م
فنون حربية بدار الكتب المصرية) .

Ayalon, David : Studies on the Structure of the
Mamluk Army.

I-III (Reprinted from the BSOAS 1954, XVI) .

Mayer, L.A. : 1) Saracenic Arms and Armor (Ars
Islamica, Vol. X. 1943).

2) Mamluk Costume, Genève 1952 Vol. X. 1943.

الحيدر الباز العربى